الفصل الأول

سكان فلسطين الأصليين

obeikandl.com

obeikandl.com

الكنعانيون(*)

إذا نظرنا إلى خارطة فلسطين رأينا أنها جسر يصل آسيا العربية بأفريقية العربية ويصل الجزيرة العربية بالبحر الأبيض المتوسط ويطلق على فلسطين سوريا الجنوبية وهى جزء مهم فى هذه المنطقة من الوطن العربى فى وضعها السياسى والاقتصادى والثقافى والاجتماعى ولها استراتيجية مهمة فى الشرق الأوسط ويسكنها الكنعانيون والفلسطينيون من أقدم العصور(١) . ويحدثنا التاريخ أن الكنعانيين جاءوا إلى هذه المنطقة حوالى سنة ٢٥٠٠ ق.م وقد أسماها التاريخ أرض كنعان كمثل ما ورد فى التوراة ، لقد أقام الكنعانيون فيها وأنشأوا حضارة مزدهرة شأنهم فى ذلك شأن الموجات العربية المتتالية التى وفدت إلى وادى الرافدين وإلى سوريا الذين ضربوا بسهم وافر لإرساء التحضر البشرى فأنشأوا دولا حضارية عظيمة الأكادية والبابلية والآشورية والكلدانية على شاطىء دجلة والفرات ويذكر Ungers كانت فلسطين قبل أن يكون ذكر فى التاريخ لما يعرف باليهود لعشرات القرون مأهولة بشعوب عربية تنحدر من العمالقة ومن الشعب الكنعانى العظيم فكان يسكنها فى الجنوب

(١) مطامع اليهود فى فلسطين قديما وحديثا – د. محمد بديع الشريف .

العمالقة ومن مدنهم غزة ورحبوت وقادش وبئر السبع وجرار وكان الكنعانيون يسكنون الساحل بأسره من غزة إلى شمال عكا وقسما من المنطقة الجبلية الشاملة لنابلس وجنين وطولكرم وقد بسط القول انجرز فى مساكن الكنعانيين فى جميع قبائلهم[1] .

ويقول فيليب حتى : انتشرت المدن الكنعانية الأولى على طول الساحل من جبل كاشيوس حتى الكرمل فى الجنوب ويقول كان الكنعانيون ينتظمون فى جماعات صغيرة على رأس كل منها «ملك» وصل إلى الحكم غالباً بعد أن كان ينتسب إلى طبقة الأشراف الملاكين وكانت كل جماعة تتجمع حول مدينة محصنة مسورة ذات شرفات وأبراج للدفاع يمكن لسكان الريف المجاورين الالتجاء إليها فى الخطر والمجيء إليها وقت السلم سوقًا ومركزاً اجتماعياً وقد ذكرت هذه المدن وكثير غيرها فى تقرير حملات تحوتمس الثالث (فى مطلع القرن الخامس عشر ق.م) ورسائل تل العمارنة كما يوجد لها وصف فى سفرى يشوع والقضاة وكانت مساحة هذه المدن صغيرة وأسوارها سميكة ومنيعة فقد كان سور «جزر» ضخماً بلغ سمكه ستة عشر قدماً وارتفعت أسوار أريحا حتى بلغت واحداً وعشرين قدماً تلك حصون الكنعانيين القوية

(١) راجع الطاهر فى كتابه تاريخ فلسطين والأردن (مخطوط) خرائط قاموس الكتاب المقدس : Ungers .

التى ألقت الرعب فى جواسيس موسى[1] حين أرسلهم ليتجسسوا فى الأرض فرجعوا إليه وقالوا : أن الشعب الساكن فى الأرض معتز والمدن حقيقة عظيمة جداً وقد رأينا بنى عناق هناك : العمالقة ساكنون فى أرض الجنوب والحثيون واليبوسيون والأموريون ساكنون فى الجبل والكنعانيون ساكنون عند البحر وعلى جانب الأردن. أن فيها إناساً طوال القامة والجبابرة بنى عناق فكنا فى أعيننا كالجراد وهكذا كنا فى أعينهم.

ومات موسى عليه السلام ولم يدخل هذه الأرض (أرض فلسطين) .

هذا الشعب الكنعانى بهر العالم فى النتاج الحضارى الذى قدمه فى سواحل فينيقية وسهول كنعان وجبالها . فلم يقتصر نشاط الكنعانيين على الزراعة وتربية المواشى بل اندفعوا فى مجال الصناعة وضربوا بسهم وافر فى التعدين وصناعة النحاس والبرونز وصنع الفولاذ واهتموا بالبحث عن أنواع المعادن لمزجها واستعملوا الأوانى الفضية كما برعوا فى الصياغة ولقد اكتشف فى «رأس شمرا» ميزان أحد الصاغة كما اكتشفت أنواع الحلى النسائية والأسلحة الحربية والآلات الموسيقية وتفوقوا فى صناعة الزجاج وكانت صناعة النسيج من الصناعات الاعتيادية فى المنازل وتذكر وثائق «نوزى» من

(١) حتى : ص ٨٨ سفر العدد ١٣ - ٢٨ .

حوالى ١٥٠٠ ق.م الصوف الكنعانى والقطن الذى كان بالأصل من نبات الهند قد أدخله سنحاريب إلى بلاد آشور ولقد برع الكنعانيون فى صناعة الأصباغ أيضاً . وصفوة القول أن الصناعات عندهم سدت حاجات المتحضر فى ذلك الزمن من عربات الحرب التى يجرها الخيول إلى السيوف والفئوس والسكاكين إلى الإبر والأزرار والدبابيس وبرعوا فى صناعة النسيج ولبسوا الحلل الفاخرة . ولقد ألقت اكتشافات مدنية أو غاريت شعاعاً وضاء على تراث الكنعانيين وما قدموا للعالم فى الآداب والشرائع وتبين لنا أن الكثير من خير ما تركه هذا التراث الزاهر فى الآداب أخذه العبرانيون وأدخلوه فى كتاباتهم المقدسة وخاصة فى القطع الغنائية والحكم التى استعملها سفر الأمثال والمزامير ونشيد الأنشاد والأساطير التى دخلت فى سفر التكوين وقصص أنبيائهم ولم يكن هذا معروفاً قبل اكتشافات أوغاريت[1] وسنبسط الموضوع فى كلام لاحق ومن أعظم المنح التى منحها الكنعانيون العالم تلك المنحة التى تعتبر مفتاح التحضر الإنسانى قديمه وحديثه تلك هى الأبجدية التى لا تزال تعرف باسمها العربى الألف باء "Alphabe" ويقول فيليب حتى

(٢) راجع فيليب حتى ١٢٣ أوغاريت هذا هو اسمها فى عصر ازدهارها فى ١٤٠٠ ق.م وتقع على مسافة ميل واحد إلى الداخل بالنسبة لمينائها المسمى «المينا البيضا» الذى يقابل جزيرة قبرص تماماً .

لقد منح الكنعانيون العالم منحتين : هما ديانة التوحيد واكتشاف المحيط الأطلسى.

ولقد ضرب الفينيقيون[1] الذين هم أشقاء الكنعانيين أو هم الكنعانيون أنفسهم بسهم وافر يدعوا إلى الإعجاب فى الملاحة والتجارة فقد اكتشفوا طرقًا بحرية لأنفسهم واتخذها الناس أيضًا وهم الذين اكتشفوا فائدة النجمة القطبية ، فكانوا أول من أتقن فن الملاحة ليلا والمسير حسب النجوم وأعظم عمل بحرى قام به الفنيقيون هو الدوران حول أفريقية قبل البرتغاليين بأكثر من ألفى سنة يقول هـ.ج. ولز يقص علينا هيردوت رحلة سببها أن فرعون مصر (نخاو) أحد ملوك الأسرة السادسة والعشرين عهد إلى بعض الفنيقيين أن يحاولوا الطواف حول أفريقيا وأنهم خرجوا من خليج السويس متجهين جنوبًا عادوا مخترقين الأبيض المتوسط حتى يصلوا إلى دلتا النيل وقد اقتضاهم استكمال رحلتهم هذه ثلاث سنوات[2]. ولقد عمروا الموانى أينما حلوا وليس التبسط فى هذا الموضوع من بحثنا إلى مقدار ما له صلة بارتباط هذا الشعب بأرضه الحبيبة منذ آلاف السنين .

(١) يقول هـ.ج ولز كان الفينقيون شعبًا أسبق من الأغريق انحدارًا إلى البحر ، كانوا ملاحين عظامًا وتجارًا عظامًا وذكر مستعمراتهم ومدنهم التى أسسوها على الساحل الأفريقى فذكر عظمة قرطاجنة .

(٢) شارف ١٥٧ .

العرب فى فلسطين وسوريا قبل ظهور الإسلام[1]

من باب التجاوز أن نكتب هذا العنوان فى بحثنا فإن الكنعانيين والفنيقيين من الموجات العربية التى انحدرت من شمال الجزيرة العربية كما مر بنا إلى حوض الرافدين وسوريا ولم تنقطع الجزيرة عن إمداد سوريا والرافدين بأنبائها ولكن ورود أسماء الدول العربية قبل مشرق الدعوة الإسلامية تلفت النظر إلى أن نشير إلى ذلك فقد كان قبل ظهور الإسلام المناذرة فى العراق وكانت قبائل ابادنشتو فى البادية ونصيف فى العراق وكانت فى سوريا ثلاث دول لها عهودها الزاهرة ولعبت دوراً فى الحروب التى وقعت فى سوريا وفلسطين وهذه الدول هى الأنباط وتدمر والغساسنة .

وكانت البتراء عاصمة الأنباط وهى مدينة تقع بين الحجاز والأردن وتوجد فيها مياه غزيرة عذبة ومركزاً تجارياً ونقطة للمواصلات المؤدية إلى غزة فى الغرب وبصرى ودمشق فى الشمال وإلى أيله على البحر الأحمر وإلى الخليج العربى عبر الصحراء وكان على رأسها ملوكها ومنهم الحارث الذى مر بنا ذكره فى حروب المكابيين وقد كان لخلفائه دور كبير فى توسيع مملكتهم فى سوريا وفلسطين وقد أرسل مالكو الثانى إلى تيتوس فى هجومه

(١) المصدر السابق .

على أورشليم ألف فارس وخمسة آلاف من المشاة وقد أظهرت الكتابات الأثرية التى وجدت فى حوران وبتيولى مبلغ الحضارة المزدهرة التى وصلت إليها هذه الدولة العربية وأطلق المؤرخون على هذه الدولة «الدولة العربية» لأن حضارتها عربية وأسماء ملوكها عربية ولغتهم اللهجية العربية الشمالية وقد ورد فى الكتابة فى بتيولى اسم «على» وفى كتابات أخرى اسم «حبيب وسعيد» وهما اسمان عربيان ويرى بعض المؤرخين أن الأبجدية العربية انحدرت من الحروف النبطية خلافًا للآراء الأخرى التى ترى أن وادى الرافدين هو المكان الأول الذى ظهرت فيه الكتابة العربية الصحيحة .

أما المملكة الثانية فهى تدمر وقد ظهرت بهذا الاسم حوالى ١٨٠٠ ق.م وفضلاً عن كونها مركزًا تجاريًا كان معدلا لميزان القوى بين الرومان والفرس وكان أدلاؤهم يقودون القوافل عبر الصحراء مصطحبين الرماة خوفًا من البدو المتنقلين فى المنطقة وبعد أن أخذوا المسؤولون إذنًا من هؤلاء البدو .

وكان ولاء هذه الدولة لروما وكان أبرز ملوكها « اذينة » الذى يتمتع بسمعة طيبة فى الفضائل العربية وبعد اغتياله فى مؤامرة برزت زوجته زنوبيا التى اتسعت فى أيامها الدولة التدمرية فشملت سوريا وجزءًا من آسيا الصغرى وشمال الجزيرة العربية وقد أقيم لها

على عمود عال فى شارع الأعمدة الكبير فى تدمر تمثال نقشت عليه كتابات أثرية باللغتين اليونانية والتدميرية .

أما المملكة الثالثة فهى مملكة الغساسنة أسسها بنو غسان الذين صعدوا من اليمن إلى حوران إبان خراب سد مأرب وقد وجدوا قبائل عربية قبلهم وهم من الضجاعم من قبيلة سليم وقد ساهم الحارث أحد ملوك غسان فى إخماد الثورة السامرية . وخلدهم حسان بن ثابت الذى ينتسب إليهم بقصائد رائعة وتصف المرويات التاريخية قصورهم وحياتهم وصفاً ينبىء عن حضارة مزدهرة .